تفسير آية الكرسى الكريمة

الحمد لله الذى تقدّس عن الحدوث ، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد المبعوث ، وعلى آله وأصحابه اللُّيوث ، نحمده أن هدانا لطريق الإسلام ، ووفقنا للعمل بدينه واتباع نبيه ، فسبحانه من إلٰهٍ وسع كرسيه السمٰوات والأرض ، وفضل ما فضل من آياته على بعض ، وصلاة وسلاماً على من أرسله الله رحمة للعالمين ، وخصه بأشرف كتاب ، وفضله بغاية القرب ، وجمله فى الدارين بألطف خطاب ، وعلى آله كنوز الندى ، وأصحابه نجوم الهدى .

وبعد فلِمَا لِآية الكرسى الكريمة من السيادة على آى القرآن ، كما جاء عن المصطفى سيد ولد عدنان ، رأيت أن أتشرف بتفسيرها فجمعت ما تفرق من الكلام من مواطنه ، وأضفت ما فتح الله به من خزائنه ، فالحمد لله على أن ألهمنى هذه النعمة ، وله الشكر على ما أولانى من تلك المنّة .

البحث الأول

فى أسماء هذه الآية الشريفة

لها أسماء كثيرة ، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمّى فى الأغلب الأكثر فمنها : سيدة آى القرآن ، والمحصِّنة ، والجُنَّة ، وآية الحرس ، وأشرف آية ، وأعظم آية ، ولها أسماء غير هذه ، وكلها مأثورة .

وهى مدنية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه فكتبها .

البحث الثانى فى فضلها

فى صحيح مسلم من حديث أبىّ بن كعب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه قال : « يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ! أَتَدْرِى أَىُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ ؟ قلتُ : أَللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ، قال فَضَرَبَنِى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فى صَدْرِى وقالَ : لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ » زاد الترمذى وغيره أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّ لِهٰذِهِ الآيَةِ لِسَاناً وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ » .

وهذا تمثيل لدلالتها على صفاته سبحانه وتعالى وما اشتملت عليه من خصائص الألوهية، قال الترمذى : فهذه آية أنزلها الله عزّ وجل ، وجعل ثوابها لقارئها عاجلا وآجلا ؛ فأما العاجل فهى حارسة لمن قرأها من جميع الآفات ، وسكت عن الآجل للعلم به ، وروى البخارى فى تاريخه عن ابن الأسقع واثلة «أَنَّ النَّبِىَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم جَاءَهُمْ فى صُفَّةِ الْمُهَاجِرِينَ فَسَأَلَهُ إِنْسَانٌ أَىُّ آيَةٍ فى الْقُرْآنِ أَعْظَمُ ؟ فقال : أَللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ » حَتَّى انْقَضَتِ الآيَةُ .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما « أَنَّ عُمَرَ بن الخَطَّابِ رضىَ اللهُ عنهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ إِلى النَّاسِ فقال : أَيُّكُمْ يُخْبِرُنِى بِأَعْظَمِ آيَةٍ فى الْقُرْآنِ وَأَعْدَلِهَا وَأَخْوَفِهَا وَأَرْجَاهَا ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ ؛ فقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ عَلَى الخَبِيرِ قَدْ سَقَطْتَ سَمِعْتُ رسول اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم يَقُولُ : أَعْظَمُ آيَةٍ فى الْقُرْآنِ : أَللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ، وَأَعْدَلُ آيَةٍ فى الْقُرْآنِ : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ الخ ، وَأَخْوَفُ آيَةٍ فى الْقُرْآنِ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ الخ ، وَأَرْجَى آيَةٍ فى الْقُرْآنِ : قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا الخ » .

وعن على رضى الله عنه وكرم الله وجهه أنه قال : « مَا أَرَى رَجُلاً وُلِدَ فى الإِسْلاَمِ أَوْ أَدْرَكَ عُقْلَةَ الإِسْلاَمِ يَبِيتُ أَبَدًا حَتَّى يَقْرَأَ هٰذِهِ الآيَةَ : أَللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ

الْقَيُّومُ الآيةَ ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَاهِيَ إِنَّمَا أُعْطِيَهَا نَبِيُّكُمْ صلّى الله عليه وسلّم مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ وَلَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ قَبْلَ نَبِيِّكُمْ صلّى الله عليه وسلّم ، وما بِتُّ لَيْلَةً قط حَتَّى أَقْرَأَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَقْرَؤُهَا فى الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْأَخِيرَةِ ، وَفى وِتْرِى حِينَ آخُذُ مَضْجَعِى مِنْ فِرَاشٍ » وَرَوَى الطبرانى بإسناد صحيح « مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِى دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ » .

ومعنى الحديث الشريف أنه لايمنعه من دخول الجنة إلا تأخر الموت وامتداد الحياة ، وهذا المعنى يفهم من سوق الكلام كما تعطيه الأحاديث الأخرى الصحيحة ، لاما يفهم من ظاهر اللفظ من أن الموت يمنع من دخول الجنة ، لأنه سبب فى دخولها ، ولهذا عدّه الله من النعم فى قوله فى سورة الواقعة فى مقام تعداد النعم ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ فتقديره نعمة لأنه وسيلة إلى النعيم الدائم ، وكفى بهذا نعمة ، وكثيراً مايحذف من الكلام ماتفيده القرائن سلوكا لطريق الاختصار واعتمادا على دلالة القرائن وهى طريق البلغاء . وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ قَرَأَ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَرْبَعَ آيَاتٍ وَآيَةَ الْكُرْسِى وَالِاثْنَيْنِ بَعْدَهَا وَالثَّلَاثَ مِنْ آخِرِهَا كَلَأَهُ اللهُ وَوَلَدَهُ وَمَالَهُ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ » .

والسر فى طرد آية الكرسى للشيطان وجميع الآفات أن غاية القصد منها الدلالة على مضمون الآية قبلها من تمام القدرة المستلزم للوحدانية المستلزمة للإحاطة بجميع صفات الكمال مع التصريح بتلك الصفات الثبوتية والتلويح بالسلبية كلها أو جلّها وذكر الاسم الأعظم وما يدل عليه كما سيأتى إن شاء الله تعالى ، فعادت على قارئها أشعة شمس تلك القدرة القاهرة ، والصفات الباهرة بأنوار محت ظلمة كيد الشيطان وآفاته ، وأضاءت عليه مصابيح السلامة فى جميع حالته ، وقد روى أنها فى الثواب تعدل ربع القرآن ، قيل فى هذه المعادلة إنها من المتشابه ، وقيل هى باعتبار ماتضمنته تلك الآية من مقاصد القرآن ، فمعنى معادلة آية الكرسى لربع القرآن أن القرآن يشتمل على

تقرير التوحيد والنبوّات وأحكام المعاش وأحكام المعاد ، وآية الكرسى تشتمل على الأول ، ويتعين أن يكون المراد من الربع الكمّ ، لا الكيف لأن ثواب القارئ لربع القرآن عظيم لأنه عمل لسان وقلبي كثير فله أجر كثير ، وفضل الله واسع ، والأحاديث فى فضلها كثيرة ، والله أعلم .

البحث الثالث

فى بيان ماتضمنته هذه الآية من الاسم الأعظم ، واختلاف العلماء فيه

قيل إنه الحىّ القيوم ، قال الإمام الرازى ، ويدل لذلك وجهان :

أحدهما ماروى أن أبيّ بن كعب رضى الله عنه طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه الاسم الأعظم فقال فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وفى قوله : ﴿ الم اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ .

الوجه الثانى أن الحىّ يدل على كونه قادراً ، عالما ، متكلما ، سميعاً بصيراً ، والقيوم يدل على كونه قائما بذاته مقوّما لغيره .

ومن هذين الأصلين تتشعب جميع المسائل المعتبرة فى علم التوحيد .

ففى هذين الاسمين الشريفين من صفات العظمة والإلهية ماليس فى غيرهما .

قال الإمام النووى فى الفتاوى مانصه : مسألة ماهو اسم الله الأعظم ؟ وفى أىّ سورة من سور القرآن هو ؟ .

والجواب أنه الحىّ القيوم ، وأنه فى ثلاث سور من القرآن:فى البقرة ، وآل عمران وطه ، لأحاديث وردت بأنه فى هذه السور الثلاث ، وأما أنه هو الحىّ القيوم فاستنباط حسن لبعض الأئمة يقويه روايات أخر تدل على أنه الحى القيوم ، ولم يذكر فى الروايات الأخر السور كما لم يذكر فى رواية السور أنه الحى القيوم ، ففى البقرة فى آية الكرسى :

﴿ اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ﴾ . وفى آل عمران : ﴿ اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ﴾ وفى طه : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ ﴾ .

وذهب جماعة إلى أنه ذو الجلال والإكرام لقوله صلى الله عليه وسلم : « أَلِظُّوا » أى الزموا فى الدعاء « بِيَاذَا الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » لأن ذلك يدل على جميع الصفات المعتبرة فى الألوهية ، فالجلال: إشارة إلى أنه مقدس عن غايات العقول ، ونهايات الأوهام، والإكرام : إشارة إلى صفات الرحمة والإحسان .

ومنهم من ذهب إلى أنه مذكور فى أوائل السور ، وقد سبقت الاشارة إليه .

وقيل : إنه اسم من أسماء الله تعالى غير معين ، بل كُلّ اسم ذكره العبد حال استغراقه فى معرفة مولاه ، وانقطاع فكره عما سواه ، فهو الاسم الأعظم ، لأن شرف الاسم إنما هو بمسماه ، وجميع صفاته وأسمائه تدل على ذاته المقدسة الموصوفة بالوحدانية ، فإذا ذكر الله عند انقطاع الطمع من غيره تعالى كان هو الاسم الأعظم ، فكلما كان انقطاع قلب العبد عن الخلق أتمّ ، كان الاسم الذى يذكر ربه به أعظم ، ومن ذكره بأعظم الأسماء على مابينا أسبغ عليه أعظم النعم فيخلصه من دركات العذاب ، ويوصله إلى درجات النعيم ، ولهذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ » وجهه أنه حينئذ منقطع عن الخلق تماما .

ودخل جماعة عند أحد كبار أتباع التابعين وهو فى النزع فتذاكروا كيف يلقن الشهادة ، واستحيوا أن يلقنوه بأن يقول أحدهم كلمة الشهادة ، واتفقت كلمتهم على أن يتذاكروا الحديث ، فلعله إذا سمعه يقول كلمة الشهادة ، فبدأ أحدهم بذكر السند فأرتج عليه الحديث ، فكأنه ماسمعه ولا قرأه ، والثانى كذلك ، فبدأ المحتضر رضى الله عنه فقال حدثنا محمد بن بشار أنبأنا أبو عاصم النبيل عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح ابن أبى عُرَيب عن كُثَير بن مرة عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَخَرَجَتْ رُوحُهُ مَعَ الْمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ دَخَلَ الجَنَّةَ » .

ومن الناس من قال : جعل الله الاسم الأعظم مكتوما غير معلوم ليصير ذلك سببا للمواظبة من الخلق على ذكر جميع الأسماء كما أخفى الله الصلاة الوسطى فى الصلوات الخمس ، وليلة القدر فى الليالى ، وساعة الإجابة من الليل ، ومن يوم الجمعة ، والرجل الصالح فى خلقه ، ليحافظ على الجميع ، ولا يساء للجميع .

وقيل : إن اسم الله الأعظم هو لفظ الجلالة الكريم ، واستدل بأدلة منها أنه لم يطلق على غيره تعالى ، ومنها أنه الأصل فى أسمائه تعالى كلها وسائرها تضاف إليه ، ومنها قوله تعالى : ﴿ أُدْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ ﴾ والأول أشرف ، ومنها أن الكافر لابد فى إسلامه من لفظ الجلالة فكانت النجاة من النار ، والقتل ، والفوز بالنعيم المقيم موقوفة عليها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ حيث أمر سبحانه وتعالى بالإعراض عما سواه ، ومنها أن لهذا الاسم خاصية ليست لغيره ، وهى أن سائر الأسماء إذا دخلت يا النداثية عليها سقطت منها أَلْ فلا يجوز أن يقال يا الرحمن بل يقال يارحمان ، بخلاف هذا فتقول يا الله ، وفيه إشارة لطيفة إلى أن هذه المعرفة ليس لها زوال ، وحصول المعرفة مع الملوك من أعظم استجلاب كرمهم ، والاستمداد من نعمهم ، ومنها أنه بدئ به كتاب الله .

البحث الرابع

فى مناسبة هذه الآية الكريمة لما قبلها : هى مناسبة لها من وجهين :

أحدهما أن من عادته تعالى فى هذا القرآن الكريم أن يذكر عَلَمَ التوحيد ، وعلم الأحكام ، وعلم القصص ، والأول هو المقصود الأعظم ، وذكر الثانى ليتوصل به إلى الأعمال الصالحة الرافعة لأستار الغفلة عن عيون أرباب القلوب والأخلاق الفاضلة المزيلة عن أنفسهم صدأ الريوب لتتجلى فيهم حقائق التوحيد ، وذكر الثالث للمبالغة فى إلزام الأحكام والتكاليف ، وتقرير دلائل التوحيد ، وهذه الطريق أكمل الطرق وأحسنها

فإن الاستمرار على نوع واحد يفضى إلى الملالة ، فلما ذكر سبحانه وتعالى بعضاً من علم الأحكام والقصص فى الآية قبلها عقبها بما يدل على انحصار الإلهية و إثبات الملكية وكثير من صفاته السنية فى ذاته العلية ، ليكون ذلك برهانا على ما تقدم ذكره .

الوجه الثانى أنه تعالى لما أمر فى الآية قبلها بالإنفاق قبل أن يأتى اليوم الموعود الذى لاينفع فيه خلة خليل ولا شفاعة شافع ، وهو خلاف المعهود فى ملوك الدنيا لأنهم لايتمكنون من مرادهم حق التمكن من كثرة الشفعاء ، ومراعاة حق الأصدقاء لحاجتهم إلى مداراتهم واستجلاب خواطرهم التفتت النفس مَنْ هو المالك لذلك اليوم الموعود الذى لاتنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه فقال تعالى: ﴿ اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ ﴾ الخ

(اللهُ) لهذا الاسم الكريم المخصوص بالتعظيم مباحث كثيرة لأن العقلاء كما تاهوا فى ذات الله تعالى وصفاته لاحتجابها بأنوار العظمة وأستار الجبروت ، كذلك تحيروا فى اللفظ الكريم الدالّ على تلك الذات المقدسة كأنه مسه شىء من أشعة تلك الأنوار فحارت العقول فى دركه ، كما حارت فى درك مسماه فاختلفوا أسريانىّ هو أم عربى ، واسم أم صفة عَلَم ، أم غير عَلَم ، مشتق أم لا ، ومِمّ استقاقه ، وما أصله ؟ والصحيح أنه عربى ، ووقوعه فى غير العربية من توافق اللغات ، وأنه عَلَم على الذات الواجب الوجوب وهذا تعيين لموضوع الجلالة ، وليس الموضوع له لأنه كلىّ ، ومقتضى هذا صحة إطلاق الذات عليه تعالى ، كما ورد فى البخارى فلا وجه لمن قال : لا يصح إطلاق الذات عليه لأنه محجوج بما رواه البخارى وبما نقله السعد فى حواشى الكشاف ، وغير مشتق وفاقا للامام الشافعى رضى الله عنه ، والواضع لهذا الاسم هو الله تعالى ، وكره بعضهم أن يقال فى اسم الله تعالى إنه عَلَم شخص لما فيه من إيهام مالا يليق بجنابه الأقدس المخصوص بجميع الكمالات .

﴿لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾ هذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ اللهُ . إِنَّمَا اللهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ . هُوَ اللهُ الَّذِى لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ فيه دلالة على التوحيد كقوله صلى الله

عليه وسلم « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا » .

وهذه درجة يشترك فيها المؤمن والمنافق ، لأنه إذا انضم إلى التلفظ بالتوحيد على الوجه المعتبر الإذعان بالقلب لذلك فهو مؤمن و إلا فهو منافق تجرى عليه الأحكام الظاهرة فى الدنيا وهو فى نفس الأمر كافر ، ثم الأول إن كان بتقليد فهو توحيد العامة ، أو باستدلال فهو توحيد الخاصة ، وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ .

وأما توحيد خاصة الخاصة فهو إسقاط الأسباب الظاهرة فلا يشهد فى التوحيد دليلاً ولا فى التوكل والنجاة سبباً ، ولهذا قال سيد الصوفية: التوحيد إسقاط الحدوث ، وإثبات القدم ، فالتوحيد إثبات الرب بالوجود فلا يكون معه موجود ، وهـذا المعنى يصح بعلم الفناء ، و يصفو فى علم الجمع وهذه المرتبة تجمع أصحاب المشاهدة والمكاشفة ونسبتها إلى أصحاب البراهين القطعية كنسبة أولئك إلى عوام الخلق .

واعلم أن أهل الحقيقة رتبوا لأصحاب المكاشفات ست مراتب ، ثلاث منها لأصحاب البدايات ، وثلاث لأصحاب النهايات ، فأما التى لأصحاب البدايات فهى اللوائح ، واللوامع ، والطوالع ، فاللوائح كالبرق كلما ظهر ذهب ، واللوامع هى أظهر من اللوائح ، وليس زوالها سريعاً كسرعة زوال اللوائح ، فقد تبقى أكثر من وقت ، والطوالع هى أقوى سلطاناً ، وأبقى زماناً ، وأنفى للتهمة ، وأذهب للظلمة ، لكن عليها خطر الأفول و لزوال ، وأوقات أفولها طويلة الأذيال .

وأما التى لأصحاب النهايات فهى المحاضرة ، والمكاشفة ، والمشاهدة ، فالمحاضرة حضور القلب عند الدلائل ، والمكاشفة أن يصير العبد فى سيره إلى الله عز وجل غير محتاج إلى سبيل ، وتأمل دليل ، والمشاهدة هى توالى أنوار التجلى على قلب العبد من غير تخلل انقطاع ، فكما أن توالى البرق من غير انقطاع يجعل الليل كالنهار كذلك القلب إذا دام فيه شروق أنوار التجلى تشرق أنواره ، ويستمر نهاره كما قيل :

ليـــلى بوجهك مشرقٌ وظلامه فى الناس سارى
فالناس فى سدف الظلام ونحن فى ضوء النهـــار

فأما المحاضرة فمثلها رؤية الشىء فى المنام ، والمكاشفة كرؤية الشىء بين النوم واليقظة ، والمشاهدة كرؤية الشىء فى اليقظة ، ثم المشاهدة يختلف حالها فى القرب والبعد ، كما تختلف رؤية الشىء بالقرب والبعد ، وصفاء الهواء وكدرته ، وكثرة الموانع وقلتها ، وقوة البصر وضعفه ، وأيضاً المحاضرة تشبه الجلوس على عتبة باب الملك من وراء الباب ، والمكاشفة تشبه الدخول فى دار الملك ، والمشاهدة تشبه الوقوف فى الموضع الذى لا يكون بينك و بين مطلو بك فيه حجاب .

واعلم أن القلب خلق كامل الوصفية ، وله وجهان : ظاهر و باطن ، فظاهره ترابى أرضى طبيعى جسمانى ظلمانى ، و باطنه سماوى نوارنى روحانى ، فكثافته وظلمته ظاهرة لمباشرة القوى الطبيعية البشرية ، ولطافته باطنه لمواجهة الملكوتيات العلوية الروحانية الربانية ، فعلى قدر مواجهته لها ومقابلته إياها تنعكس عليه بأشعة أنوارها وتتجلى لأسراره بأسرارها فيشاهدها بالأنوار التى أفاضت عليه ، و يدركها بالأسرار التى أبدت إليه ، فهذا معنى العكس والمقابلة ، فهو يشهد جمالية محبو به فى مرآة قلبه من غير حصر ولا تحيز ، ولا حلول ولا اتحاد ، ولا انفصال ولا اتصال ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ، فقلب المؤمن كالمرآة لها وجهان : ظاهر كثيف مظلم ، و باطن لطيف مضىء ، فالذى يقابلها من الكائنات صغيراً أو كبيراً يرى فيها مع صغر حجمها وكبر حجمه من غير حلول فيها ولا اتصال بها ، ولا تحيز فى شىء منها ، فكذلك رؤية الحق سبحانه وتعالى إذا تجلى على قلب عبده المؤمن بأن يشاهده بعين يقينه و يجتليه ببصر بصيرته من غير حلول ولا اتحاد ولا اتصال ، و بالجملة فقلب المؤمن عند انكشاف أنوار الحق له إن كان الموحد يرى نفسه ، فهذا هو الفناء فى التوحيد وهو مرتبة الخواص لكنه مشوب بكدرة رؤية النفس ، فإن غاب مع ذلك عن رؤية نفسه وعن أحواله الظاهرة والباطنة ، وعن ذلك الفناء بحيث لا يشاهد غير الله تعالى فذلك هو فناء الفناء وهو مقام جمع الجمع ،

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » فيصير له معنى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ذوقاً وحالاً ، كما أن حظ غيره من المؤمنين يكون علماً وإيماناً ، والذوق نيل تلك الحالة بالحصول الاتصافى ، والعلم معرفة ذلك بالبرهان ، وكم بينهما من فرق .

وليس معنى ماتقدم فى المقامين ترك الأسباب ، وعدم السعى فى طلب الرزق أصالة ، وعدم مخالطة الناس والانقطاع ، فهذا خطأ ، بل معناه فعل السبب والسعى والمخالطة مع رؤية أن ميسر السبب وخالقه والرابط له بالمسبب هو الله تعالى ، وأن هذا كله فعله لافعل غيره ، ولا فعله مع غيره ، هذا هو المعنى فقد كانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهم فى مقام جمع الجمع بكيفية لا يدانيهم فيها غيرهم يجاهدون ، وفيه إعداد العدة وأخذ الأهبة ، ويتجرون ويتزوجون النساء ، وبالجملة تمت مخالطتهم للناس حتى بينوا جميع مايلزم لهذه الحياة ولتلك الحياة .

ولما أثبت سبحانه وتعالى توحيد ذاته المقدسة أثبت استحقاقه لذلك بحياته الذاتية إشارة إلى نفى ألوهية الأصنام والكواكب وغيرها فقال :

﴿ الْحَيُّ ﴾ أى الذى يصح أن يَعْلَمَ ويَقْدِرَ ، وكل مايصح للواجب حاصل لايزول لامتناعه عن القوة والإمكان ، أى كل مايصح للواجب من الصفات الحقيقية ، ومنها الحياة فلا بد أن يكون واجبا له ولا مقتضى لصفاته غير ذاته ، وإلا لكان محتاجاً إلى الغير فيكون ممكنا ، وإذا كانت صفاته مقتضى ذاته كانت الحياة ذاتيةً له وهذا معنى قولهم : حىّ بذاته .

﴿ الْقَيُّومُ ﴾ أى القائم بذاته ، القائم بتدبير غيره ، البالغ أقصى الغايات فى ذلك ، فهو مفيد لمعنى أزيد مما تفيده الحياة ، وإعراب النظم الكريم ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ أن تقول : اللفظ الكريم مبتدأ ، ولا إله إلا هو خبر ، والحى خبر ثان ، أو لمحذوف : أى هو الحى ، ويجوز أن يكون صفة للفظ الكريم ، أو بدلاً من لا إله إلا هو كما قيل ، أو بدلاً من هو كما قيل بذلك أيضاً ، ويجوز فى القيوم أن يكون خبرا للجلالة

أو لمحذوف ، وأن يكون صفة للحى بناء على وصف الصفة ، وأن يكون بدلاً من الحى أو من لا إله إلا هو ، أو من الضمير المستتر فى الحى أو من الضمير المستتر فى الخبر ، وأن يكون مبتدأ خبره : لا تأخذه سنة ولا نوم ، ورابط الخبر الجملة فى قوله ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ بالمبتدإ لفظ هو لكونه ضميرا راجعاً إلى المبتدإ أو لكونه من أسمائه تعالى بحيث يفهم منه ذاته تعالى من غير سبق ذكر ، فالربط من جعل الاسم الثانى موضع المضمر ، وخبر لا فى لا إله إلا هو ، وفى لا إله إلا الله وقع فيه خلاف بين العلماء ، فذهب الإمام الرازى إلى عدم التقدير أصلاً لما يرد على التقدير كما يأتى ولأنه عند عدم التقدير يكون نفيا للماهية ، ونفى الماهية أقوى فى التوحيد ، ونقل ابن الحاجب أن بنى تميم لا يثبتون لها خبراً مطلقا ، وما أوهم الخبرية فى اللفظ لا يجعلونه خبرا بل صفة للاسم ، والنسبة لا تتوقف على الخبر لجواز أن تكون لا بمعنى الفعل أى انتفى الإله إلا الله ، ونظيره النداء نحو يا زيد فإنه بمعنى أدعوك . وذهب الجمهور إلى أن الخبر مقدر ، ثم اختلفوا فيه فذهب بعضهم إلى تقدير الاستحقاق ، وذهب بعضهم إلى تقدير الامكان ، فالمعنى على الوجه الأول لامعبود مستحق للعبادة غير الله ، وَوُجِّه هذا بأن المقصود قصر استحقاق العبادة عليه تعالى ، وهذا المعنى لا يحصل نصّا إلا بتقدير الاستحقاق ، إذ بتقدير الوجود مع حمل الإله على المستحق للعبادة يبقى إله مستحق للعبادة سوى الله تعالى ، لأن انتفاء وجوده لا يقتضى انتفاء إمكانه ولا يتم بتقدير الامكان لأن قصر إمكان الألوهية له تعالى لا يقتضى وجود الألوهية واستحقاق العبادة لله تعالى بالفعل ، ومن بيان المعنى المتقدم على هذا الوجه يعلم أن الإله المعبود مطلقاً لا المعبود بحق ، والإله بحسب معناه لغةً : مفهوم كلىّ فيصح الاستثناء منه ، وانحصاره فى الخارج فى الواجب للدليل ، واستشكل هذا الوجه لأن المعنى الذى يفيده هذا التقدير أن لامعبود بالفعل مستحق للعبادة غير الله تعالى لأن الاتصاف بمفهوم الموضوع لابد أن يكون بالفعل فى نفس الأمر ، وحينئذ يبقى احتمال أن يكون شىء غير الله تعالى بالإمكان ، فلا تكون هذه الكلمة نصًّا فى نفى الاستحقاق عن جميع ماسوى الله تعالى ،

وجوابه أن هذه القضية سالبة ، والسالبة تصدق بنفي الموضوع ، فيصدق هنا نفي استحقاق الألوهية عن غيره تعالى لأنه ليس لكماله فرد ممكن غيره مستحق للعبادة ، ومفهوم تلك الكلمة نفي استحقاق الألوهية عن جميع الأفراد الممكنة الاتصاف بالمعبودية غير الله تعالى كما يقتضيه مذهب المتقدمين من أن الاتصاف بالمفهوم العنواني بالإمكان وهو المذهب الحق كما هو مقرر في موضعه، على أن هذا الكلام مبني على متفاهم العرب وهم لا يتفاهمون به إلا على معنى نفي استحقاق الألوهية عن جميع الأفراد الممكنة الاتصاف بالألوهية بحسب نفس الأمر و إثبات استحقاقه لها سبحانه وتعالى كما قدمنا لأن المفهوم من الاستعمال من هذا التعبير ذلك. ألا ترى أن المفهوم من لا قائم في الدار لا قائم بالفعل بحسب نفس الأمر مما يمكن اتصافه بذلك على أن هذا يتأتى على جميع التقادير، وجوابه ما قلناه ، ومن قدر الإمكان فالمعنى عليه لا إله ممكن أو في الإمكان إلا الله وذلك لأنه أتم في التوحيد من نفي الوجود عن الغير و إثباته لله لأن من أقر بانحصار وجود الإلهية فيه سبحانه وتعالى وقال بإمكان غيره فهو كافر ، وفي هذا نفي إمكان ألوهية غيره و إثبات ألوهيته التزاماً ، وضعف هذا الوجه بأن المطلوب إثبات الألوهية له تعالى نصًّا ، ومن قدّر الوجود جعل المقصود بلا إله إلا الله التوحيد وهو إثبات الوجود له تعالى ونفيه عن إله غيره ، ونفي إمكان إله غيره لا يستلزم إثبات وجوده كما مر ، مع أن مدّعى الخصم من الكفار ليس مجرد إمكان إله آخر بل وجود إله آخر ففي هذا التقدير ردّ لما ادعاه الخصم ويقال عليه ما مر من أنه لا يفيد حصر إمكان الألوهية فيه تعالى وجوابه ما مر ، وأيضاً الإقرار بانحصار وجود الإله فيه تعالى لازم له الاعتراف بانحصار إمكان الألوهية ، لأن من قال : لا إله موجود إلا الله يلزمه أن يعترف بأن وجود الإله الغير غير ممكن ، إذ لو أمكن لوجد ألبتة لأن الألوهية ووجوب الوجود متلازمان ، ولم يرد في توجيه هذا الرأي شيء عن تقدير الاستحقاق وكأنه يراه صحيحاً مستقيما ، وقدّره بعضهم معبود بحق وهو فاسد لتناقضه ، لأن حاصله نفي المعبود بحق عن المعبود بحق وذلك تناقض لا يخفى و بعضهم قدره ممكن موجود معاً ، وهو بعيد لأن المقدّر ليس إلا بدلالة المنطوق وهو اسم

لاالمحتاج إلى الخبر وهو لايدل إلا على واحد و بأن التقدير فى الكلام بعد الحذف فيه ، والحذف خلاف الأصل فينبغى أن يحترز عنه وعما يفضى إلى كثرته ، و إلا أداة استثناء كما هوالتحقيق ، و «هو» بدل من الضمير المستكن فى الخبر ، وذهب عبد القاهر إلى أنها بمعنى غير ، وهى مع الاسم المعظم بعدها صفة لاسم لا ، والتقدير لاإله غير الله فى الوجود ، و يمنعه أن المقصود من هذا الكلام أمران نفى الألوهية عن غير الله تعالى و إثباتها له سبحانه وتعالى ، وهذا إنما يتم إذا كانت إلاّ للاستثناء لأننا نستفيدالنفى والإثبات بالمنطوق . أما إذا كانت إلاّ بمعنى غير فلا يفيدالكلام بمنطوقه إلا نفى الألوهية عن غيره تعالى . وأما إثبات الألوهية لله تعالى فلا يفيده التركيب حينئذ ولا يبقى إلا أنه مستفاد من المفهوم ، ولايخفى أن دلالة المنطوق هى المعوّل عليها لأن المفهوم إن كان مفهوم لقب فلا عبرة به عند غير الدقاق ، و إن كان مفهوم صفة فهو غير مجمع على ثبوته والاحتجاج به وعبر بالإضمار لأن المقام لايحتمل غيره وهو أدل على الخصوص المراد . ولما وصف سبحانه وتعالى ذاته القدسية بحياته تنزيهاله عن الموت الأكبر عقب ذلك بتنزيهها عن الغفلة بنفى سببها « النوم » الذى هو الموت الأصغر فقال جل ذكره :

﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ السنة كعِدَة من وسن فهو وسنان ، ومعناها مايتقدم النوم من الفتور الذى يسمى بالنعاس . فالمعنى لا يأخذه نعاس ولا نوم ، والنوم حال يعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ بسبب رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف الظاهرة عن الإحساس رأساً .

وفى الشفاء : النوم اجتماع أبخرة طبيعية تكون فى مجرى الأرواح فيقلّ الإدراك ثم يذهب رأساً ، وليس لمطلق الحيوان ، إذ منه مالا ينام كالذئب والعقاب والحدأة ، وهذا غير صحيح ، لأن سوق الآية الكريمة لبيان الفارق بين الوجود الحيوانى والوجود الواجبى فكل ماسوى الواجب من الحيوان تأخذه سنة ونوم ، ولا يكون إلا عن صحة ، وليس هذا حدا للنوم لأن النوم حال تعرض من اجتماع الأبخرة ، وحقيقة هذه الحالة لم تعرف ، فيكون ماقبله بياناً لمعنى النوم بذكر أمر عام ، وهوالحالة و بيان سببها ، و بيان خاصتها .

وأما كلام الشفاء ففيه شيء من التساهل فى قوله إن النوم اجتماع أبخرة ، وإنما ذكر خاصته وذكر سببه ، ولاتقول: إذا كانت السنة وهى مقدمة النوم لاتأخذه فلا يأخذه النوم بالأولى فيكون ذكر النوم تكراراً . لأنه يقال لك إن تقدير الآية لاتأخذه سنة فضلا عن نوم ، على أن ضعيف المزاج نومه خفيف وقوى المزاج نومه ثقيل . فجاز أن يتوهم متوهم أنه تعالى هو القوى فيأخذه النوم الثقيل ولا تأخذه السنة ، فنفى النوم الثقيل أيضاً دفعاً للتوهم المذكور ، ولك أن تقول إن الجمع بينهما مع تقديم السنة موافقة للخارج على طريقة ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ .

وقال بعضهم: إنه لايغنى ذكر النوم وحده لئلا يتوهم أن السنة يجوز أن تطرقه فيزول تمكنها بنحو مايفعل أحدنا بالمشى وغيره ، ولا ذكرها وحدها ، لأن النوم ربما يهجم بقوته دفعة من غير تدرج فتور ، ولأجل التعبير بالأخذ الذى معناه القهر والغلبة وجب تقديم السنة ، كما لو قيل فلان لا يغلبه أمير ولا سلطان ، وقيل فى هذا المقام إن نفى الأخذ لا يستلزم نفى الحصول ، فهلانفى الحصول ؟ وجوابه أن الأخذ فى هذا المقام هو الموجود الحاصل المشاهد فهو لازم للسنة والنوم ففيه يستلزم نفيهما لأن نفى اللازم يستلزم نفى الملزوم ، وقيل نزه نفسه عن السنة والنوم لما فيهما من الراحة وهو تعالى لا يجوز عليه التعب ، وقيل المعنى لا يقهره شيء ولا يغلبه ، وفى المثل النوم سلطان ، وهذه الجملة تأكيد فى المعنى للقيوم لأنه من لوازمه ، وإثبات اللازم بعد إثبات الملزوم تأكيد للملزوم ، ووجه اللزوم أن من جاز عليه النوم لا يكون قيوماً ، وينعكس بعكس النقيض إلى من يكون قيوماً لا يجوز عليه النوم ، وقيل إن هذه الجملة نفى للشبيه وتأكيد لكونه حيًّا قيوماً ، فإن من أخذه النعاس أو النوم كان مأفوف الحياة قاصر الحفظ ، والتدبير ، والذى قبله أنها تأكيد للقيوم فقط ، والقيوم كما قدمنا موقعه مما قبله موقع التعليل . وأما هذا الأخير فيرى أن الجملة بتمامها تأكيد للحى القيوم ، ثم هذه الجملة خبر عن الحى أو عن الله ، أو حال من المستكنّ فى القيوم أو استئناف ، ويجوز أن تكون حالاً من القيوم نفسه ، أو من ضمير الحى أو من الحى نفسه ، أو من هو ،

أو من الله ، ويجوز أن تكون الجملة خبرا عن القيوم ، وإنما أنث الفعل فى «تأخذه» ولم يغلب المذكر لأنه من عطف الجمل دون المفردات ، فالمعنى لاتأخذه سنة ولايأخذه نوم ، فحذف من الثانى لدلالة الأول ، على أن العبرة فى التذكير والتأنيث بالمتبوع، ومنه قوله تعالى : ﴿ لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ وتكرير النفى لبيان انتفائهما على كل حال ، إذ لولا ذلك احتمل أن يكون انتفاؤهما بقيد الاجتماع ، ثم قال سبحانه وتعالى تقريرا للقيّومية له وسوقاً للحجة على تفرّده بالألوهية .

﴿ لَهُ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى له لا لغيره ما فى السمٰوات وما فى الأرض خَلْقاً وملكا على وجه الاختصاص ، والمراد بما فيهما ماوجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما ، فهو أبلغ من قوله : له السمٰوات والأرض وما فيهن ، ووجه الأبلغية أن الآية تدل على أن كل جزء للسمٰوات وكل جزء للأرض فهو له تعالى ، سواء كان ذلك خاصاً بواحد منهما أومشتركا بينهما، بخلاف ومافيهن فإنه لايدل على ذلك صريحاً ، بل الظاهر الدلالة على أن الجزء المشترك له ، وكذا تقول فى الأمور الخارجة فإن ظاهر هذه العبارة دالّ على أن الأمور الموجودة فيهما معاً له تعالى .

وأما الأمور التى وجدت فى إحداهما دون الأخرى فلايدل ظاهر العبارة عليها،ووجه بعضهم الأبلغية بمناسبة مقتضى الحال إذ المقصود نفى الألوهية عن غير الله تعالى ، وأنه لا ينبغى أن يعبد غيره ، لأن ما عبد من دون الله من الأجرام النيرة التى فى السمٰوات كالشمس والقمر والشّعرى ، والأشخاص الأرضية كالأصنام و بنى آدم كل منها مِلْكٌ له تعالى مربوب مخلوق فى السمٰوات والأرض ، فنصّ على ملكه واختصاصه بما فيهما نفياً لألوهية ما ذكر .

وأما ملكه ذاتَ السمٰوات والأرض ، فقد علم من غير موضع من القرآن غير هذا الموضع ، ففى الجمع بين الظرف والمظروف حينئذ إطناب فى مقام الإيجاز الأنسب بالمقام ، ولكن الأنسبية التامة متحققة بما حررناه بقولنا : والمراد إلى آخره ، والتعبير بما دون مَن لأن المقصود إضافة كل ما سواه إليه بالمخلوقية ، والغالب فيه ما لايعقل

أو أنه نزل من عُبد من العاقل منزلة غير العاقل إشارة إلى عدم صلاحيته لهذا المقام ، وعلى هذين تكون ما واقعة على ما عبد من دون الله ، أى له تعالى لا لغيره ما عبد ممن فى السموات والأرض ، ولكن يرد عليهما أنهما قاصران ، فالوجه ما قدمناه ، وتكرير النفى للتأكيد ، ولم تجمع الأرض إشارة إلى فضل السموات .

ولما كان المشركون يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله تعالى فيقولون : ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ . مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى ردًّا عليهم بأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه : أى إلا بأمره فقال جلّ وعلا :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أى لا أحد يطلب شيئاً لغيره منه سبحانه وتعالى إلا بإذنه ، فهذه الجملة تقرير لما قبلها وبيان لكبريائه ، وأنه لا أحد يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له فى الكلام لقوله : ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فهى بيان لعزة شأنه وأنه لا يساويه أحد أو يدانيه يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة ، فضلا عن أن يقاومه عناداً أو مناصبةً ، ومعنى الإذن: الأمر كما ورد فى حقه صلى الله عليه وسلم : « اُشْفَعْ تُشَفَّعْ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ » والشفاعة تجديد وصلة بين المشفوع له ، والمشفوع عنده ، ولا يصح إنكار الشفاعة رأساً مع تصريح هذه الآية الكريمة بها لمن أذن له ، وهى ثابتة للرسل والأخيار فى حق أهل الكبائر ؛ لأنه يجوز العفو والمغفرة بدون الشفاعة فبالشفاعة أولى ، ووجه الأولوية إظهار فضل الله على الشفعاء .

وإعراب هذه الجملة : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أنّ مَن مبتدأ وهواستفهام فى معنى النفى، كما سبقت الإشارة إليه ، ولهذا دخلت إلّا فى قوله «إلا بإذنه» فهو استثناء مفرغ ، وخبر المبتدإ « ذا » ، والذى نعت لذا أو بدل منه ، وعلى هذا تكون ذا اسم إشارة ، ولكن فيه بُعد لأن ذا إذا كان اسم إشارة وكان خبراً عن من استقلت بهما الجملة مع أنها محتاجة إلى الموصول بعدها ، والذى يظهر أن مَن الاستفهامية

ركبت مع ذا وتكون منذا كلها كلمة واحدة فى موضع رفع بالابتداء ، فتكون ذا لغواً أى ليست اسم إشارة ، والموصول هو الخبر عن منذا إذ به يتم معنى الجملة الابتدائية وعنده معمول ليشفع ، و بإذنه متعلق بيشفع ، والباء للمصاحبة ، والمعنى لا أحد يشفع عنده إلا مأذونا له منه .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أى ما قبلهم وما بعدهم ، أو بالعكس لأنه مستقبل المستقبل ومستدبر الماضى ، أو أمور الدنيا والآخرة أو عكسه ، أوما يحبون وما لا يحبون ، أو ما يدركونه وما لا يدركونه ، أو ما بين أيديهم من السماء والأرض ، وما خلفهم مما فى السماء وما فى الأرض ، أو الحاضر من أفعالهم وأحوالهم وما سيكون منها أو عكسه ، أو ما بين أيدى الملائكة من الشفاعة وما خلفهم من أمر الدنيا وقيل غير ذلك ، والمقصود أنه تعالى عالم بأحوال الشفيع والمشفوع لأنه عالم بجميع المعلومات ، والشفعاء لا يعلمون من أنفسهم أن الله أذن لهم فى تلك الشفاعة أم لا ، والمراد بهؤلاء المذكورين الملائكة ، وسائر من يشفع يوم القيامة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فهو كناية عن إحاطته علماً بسائر المخلوقات من جميع الجهات ، وكنى بهاتين الجملتين عن سائر جهات ما أحاط علمه به كما تقول : ضرب زيد الظهر والبطن من فلان أى جميع جسده والضمير لما فى السموات والأرض لأن فيهما العقلاء وغلب العقلاء على غيرهم .

﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ أى من معلوماته .

﴿ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ هو أن يعلموه فعلم الإنسان إنما هو بادارة الله تعالى .

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ ﴾ المتبادر إلى الذهن ثلاث معان :

أولها أن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض ببسطته وسعته ، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط ولا كرسى ولاقعود ولا قاعد : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمٰوٰتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ من غير تصور قبض وطىّ و يمين ، و إنما هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل للمعقول بالمحسوس ، والله سبحانه وتعالى

خاطب الخلق بتعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه فى ملوكهم وعظمائهم ، فمن ذلك جعل الكعبة بيتاً يطوفون به كما يطوفون ببيوت ملوكهم، وذكر فى الحجر الأسود أنه يمين الله فى أرضه ، ثم جعله موضعاً للتقبيل كما يقبل الناس أيدى ملوكهم ، وأثبت لنفسه عرشاً فقال ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ثم وصف عرشه فقال : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ وقال : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ وقال : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ .

وما هذا كله إلا تصوير لعظمته وكبريائه ، فصوّر المعقول بصورة المحسوس ، وأبرز الغائب عن الحسّ فى صورة المشاهد ، وحقيقته تمثيل عظمته بعظمة من يكون له كرسى لا يضيق عن السموات والأرض ، ثم أطلق لفظ المركب الحسى على المعنى العقلى المحقق.

والمعنى الثانى للكرسى : العلم ، وسمى العلم كرسيا تسمية بمكان العالم الجالس عليه .

والمعنى الثالث : وسع ملكه تسمية بمكانه الذى هو كرسى المُلْك .

هذه المعانى الثلاث تتناسب مع ماسيقت له الآية الكريمة ، ووراء هذه الثلاث معان مأخوذة من الرواية ، منها : أن الكرسى جسم عظيم ، فقد ورد أنه خلق كرسيا هو بين يدى العرش ، وقيل : هو تحت الأرض كالعرش فوق السموات ، وقيل : هو موضع قدمى الروح الأعظم أو ملك آخر عظيم القدر ، وقيل : قدرة الله تعالى ، وقيل : تدبيره وهما يَمُتَّان إلى الثلاثة الأول سيما الأول منها ، والأحاديث دالة على أنه مخلوق عظيم بين يدى العرش والعرش أعظم منه ، والأحاديث مشهورة معروفة ، والكرسى فى الأصل : اسم لما يقعد عليه ، ولا يفضل عن القاعد . ويأوّه لغير النسب ، وقيل : للنسب ، وهو منسوب إلى الكَرْس أى اللُّبد ، فإن المكرّس هو الملبّد ، ومنه الكرّاسة لاجتماع ورقها ، وقرئ شاذا وُسْع كرسيه السَّمٰوَاتُ والأرض على المبتدأ والخبر .

﴿ وَلَا يَئُودُهُ ﴾ أى لايثقله ، ولايشق عليه . ﴿ حِفْظُهُمَا ﴾ أى حفظ السموات والأرض ، ولم يتعرض لحفظ مافيهما ، لما أن حفظهما مستتبع لحفظ مافيهما ، أو أن الضمير

المثنى عائد على ما فى السموات وما فى الأرض ، وما فى السموات وما فى الأرض شامل لهما ، ولما هو خارج عن حقيقتهما مظروف لهما .

﴿ وَهُوَ ﴾ لاغيره ﴿ الْعَلِيُّ ﴾ المتعالى عن الأنداد والأشباه . ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ المستحقر بالإضافة إليه كل ماسواه ، قيل : العلى مستحق العلو ، والعالى : هو الموجود فى جهة العلو ، وهما على هذا فى المحسوسات ، وقيل : العالى هو الذى يجوز أن يشارك ، بخلاف العلى فهو الذى لايجوز أن يشارك ، فعلى هذا يوصف الواجب بالعلى دون العالى ، ولا يجوز وصفه بهما على الأول ، والمقصود من النظم الكريم علو شأنه . وعظم قدرته وملكه ، والله سبحانه وتعالى عَلِيٌّ بالاقتدار ونفوذ السلطان ، وَعَلِيٌّ عن الأشباه والأمثال . فمعنى العلو فى وصفه : اقتداره ، وقهره ، واستحقاقه صفات المدح ، والعظيم الملك والقدرة لا يعجزه شىء ، ولا نهاية لمقدوراته ومعلوماته .

وآية الكرسى مشتملة على أمهات المسائل الإلهية ، فانها دالة على أنه تعالى واحد فى ألوهيته أى فى وجوب وجوده لذاته متصف بالحياة الذاتية موجد لغيره ، إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره ، منزه عن التحيز والحلول ، مبرأ عن التغير والفتور ، لا يناسب الأشباح ، ولا يعتريه ما يعترى الأرواح ، مالك الملك والملكوت ، ومبدع الأصول والفروع ، ذو البطش الشديد الذى لا يشفع عنده إلاَّ من أذن له ، عالم بالأشياء كلها جليِّها وخفيها ، كُلِّيها وجزئيها ، واسع الملك والقدرة لكل ما يصح أن يملك و يقدر عليه ، لا يؤده شاقّ ولا يثقله شأن ، متعال عما يدركه وهم ، عظيم لا يحيط به فهم ، فقيامه بنفسه معناه وجوده بنفسه ، واستفيد حصول الوجود بنفسه من وجوب الوجود ، واستفيد كونه موجدا لغيره من كون وجوده واجباً أيضاً : وكونه منزهاً عن التحيز والحلول مستفاد من قوله قيوم لأن ذاته كافية فى وجوده ، ومن كان كذلك لايحتاج إلى ما سواه فلا يكون متحيزاً ولا حالاً فى متحيز ، و إلا لا حتاج إلى غيره ، فلا تكون ذاته مقتضية لوجوده ، و يصح استفادة هذا المعنى أيضاً من الألوهية ، وعلمه بالأشياء كلها مستفاد من « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » .

قال فى الكشاف: « كيف ترتبت هذه الجمل فى آية الكرسى من غير عطف » وجوابه أنه ما من جملة منها إلا وهى واردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه ، والبيان متحد بالمبيَّن ، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب : « بين العصا ولحائها » .

فالأولى من الجمل التى لم تعطف وهى قوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ بيان لقيامه بتدبير خلقه وكونه مهيمناً غير ساهٍ عنه .

والثانية من تلك الجمل وهى قوله : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ بيان لكونه مالكا لما يدبره .

والثالثة منها ، وهى قوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ بيان لكبرياء شأنه .

والرابعة ، وهى قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ بيان لإحاطته بأحوال الخلق وعلمه بالمرتضَى الذى تقبل شفاعته وغير المرتضى .

والخامسة وهى قوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ الخ ﴾ بيان لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها ، ولجلاله وعظم قدره ، وهذا مبنى على أن الأصل الذى ترتبت عليه هذه الجمل كلها هو : ﴿ اللَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ فالجمل كلها مرتبة على هذا الأصل كما بينا. ولا يقال: إن فى بعض الجمل عطفاً ، فكيف ينفى العطف . لأنا نجيب بأن قوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ من تتمة ماقبله أى يعلم الخ . وأشار البيضاوى إلى هذا بقوله: « وعطفه » أى ولا يحيطون على ماقبله لأن مجموعهما يدل على تفرده بالعلم الذاتى الدال على وحدانيته ، وذلك لأن القصد إثبات العلم له تعالى ، ونفيه عن غيره إلا أن يُعْلِمَهُ ، وقد حصل الأول بقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وحصل الثانى بقوله ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ ﴾ الخ ، وأما قوله ﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ فهو من تتمة ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ الخ ، وذلك لأنه ربما فهم من سعة الكرسى للسموات والأرض ثقل حفظهما فدفع ذلك وبين أنه لا كلفة فيه بوجه بقوله : ﴿ وَلَا يَئُودُهُ

حِفْظُهُمَا ﴾ ثم أخبر بأنه العلى العظيم على الإطلاق ، فهو عطف على مجموع المتقدم كله .

وفى كلام بعض المفسرين أن «اللهُ لا إلٰه إلا هو» تصريح بنفى الإلٰهية عن غير الإلٰه الحق ، و إثباتها للإلٰه الحق تبارك وتعالى على سبيل الإجمال وما بعده إلى آخر الآية إشارة إلى نفى إلٰه كل طائفة من المشركين على التفصيل ، فإن من يعبد غير الله إما لكونه شفيعه ويقرّبه إلى الله تعالى ، و إما لغير ذلك ، وعلى كل فهى إما أصنام أو كواكب ، و إما ملائكة ، و إما بشر كعبدة عزير وعيسى ، فقوله ﴿ الْحَيُّ ﴾ إشارة إلى نفى ألوهية الأصنام ، وقوله : ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ إشارة إلى نفى ألوهية البشر ، وقوله : ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ زيادة فى نفى ألوهية البشر ، وقوله ﴿ لَهُ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ إشارة لنفى ألوهية الكواكب والملائكة والبشر أيضاً ، لأن المقام يقتضى ذلك ، وقوله ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ إشارة إلى نفى ألوهية الآلهة التى يعبدونها لشفاعتها بحسب زعمهم ، وقوله ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَاخَلْفَهُمْ ﴾ برهان قاطع على إثبات وحدانيته فى الألوهية ، وقوله ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ برهان قاطع على نفى ألوهية الملك والبشر لاقتضاء المقام التأكيد فى ذلك وكذلك ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ برهان قاطع على إثبات وحدانيته فى الألوهية ونفيها عن غيره .

وهذه البراهين و إن أكدت وحدانيته فى الألوهية ، ولكنها متخالفة فى وجه الدلالة ، لأنه إنما يستدل على الوحدانية فى الألوهية بالعلم التام والقدرة التامة ، وقوله ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ زيادة إيضاح لبيان علمه تعالى وقدرته وهو كلام لا بأس به .

والذى نقلناه عن الكشاف فى صدر بحث ترك عطف الجمل نظر فيه إلى نظم الآية الكريمة ، و إنا إذا ناسبنا جملها من آخرها إلى أولها يتضح لك ما مضى مما قررناه فى توضيح البيان بكل واحدة ، وذلك أنك تقول : لولا أنه سبحانه وتعالى عظيم على الإطلاق من كل وجه ، و بكل اعتبار ، ومن غير حصر لم يكن عليًّا ، ولو لم يكن متفرداً بالوصفين على هذا الوجه لأوداه الحفظ ، ولو أوداه لما وسع كرسيه المُمَثِّلُ مُلكه وعلمه كل شىء ، ولو لم يكن له ذلك الوسع لم يحط علمه ، ولو لم يحط لما أمكنت

الشفاعة بغير إذنه ، ولو أمكنت بغير إذنه لما كان له جميع الخلق ، ولو لم يكن له ذلك لامكن أن تنوبه الحوادث ، ولو طرقته الحوادث لما كان قيوما ، ولو لم يكن قيومًا لما كانت حياته كاملة ، ولو لم يكن كذلك لما توحد بالألوهية ، ولو لم يتوحد بها ما اختص بالاسم الأعظم ، وقد اختص به فلم يكن له سمّى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ سبحانه وتعالى فهو يقطع أثر الأسباب والأنساب يوم التناد فلا ينفع الكافر شيء أصلا .

وقد اشتملت هذه الآية الشريفة على الاسم الأعظم كما قدمنا ، وعلى الصفات المعانى السبع صريحاً لخمسة ولزوما لاثنتين : أما الخمسة الصريحة فالحياة ، والعلم ، والقدرة والارادة ، والكلام ، فإن الإذن لا يكون إلا بالكلام والارادة أيضاً ، وأما السمع والبصر فمن لازم ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ ومن لازم الحى أيضاً لأن المراد الحياة الكاملة .

وهذه الصفات هى الحاوية لجميع معانى الأسماء الحسنى ، فقد تضمنت هذه الآية جميع الأسماء الحسنى ومقتضياتها كما تضمنت فاتحة الكتاب مقاصد الكتاب العزيز فظهر كل الظهور أن الله يجعلها سبباً فى الحفظ والحراسة ، واتضح أنها سيدة آى القرآن .

ومن اللطائف أنها خمسون كلمة على عدد الصلوات التى هي عماد الدين المأمور بها أوّلاً فى تلك الحضرة العلية ، وعدد ثوابها وأجرها على ما استقرت عليه وآل أمرها إليه :

وفى الكشاف أن هذه الآية فضلت لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ، وزادت بتفصيل بديع ، ولا مذكور أعظم من رب العزّة ، فما كان ذكر الله كان أفضل من سائر الأذكار .

وقد انتهى بنا الكلام على الآية الشريفة إلى هذا المقدار . فإن كنا قد وافقنا الصواب فهذا هو مرجوّنا ، ولله الحمد والمنة علينا فيه ، وإن كانت الأخرى فإنا من البشر ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ

مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

ولنتروّح بذكر شيء عن كلمة التوحيد التى افتتحت بها هذه الآية الشريفة من حيث التسمية ومن حيث الذكر فنقول :

هذه الكلمة الشريفة تسمى كلمة التوحيد ، وكلمة الإخلاص ، وكلمة الإحسان ، ودعوة الحق ، وكلمة الحق ، وكلمة العدل ، وكلمة الصدق ، والكلمة الطيبة ، وكلمة التقوى ، والكلمة الباقية ، والكلمة العليا ، والمثل الأعلى ،

قال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ هو قول لا إله إلا الله ، والمراد بالمثل هنا الوصف كقوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ أى صفتها العجيبة ، وكلمة السَّوَاء لقوله تعالى: ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ وهى قول: لا إله إلا الله ، وتسمى كلمة النجاة وكلمة العهد لقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ أى قول لا إله إلا الله ، وكلمة الاستقامة لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ وتسمى مقاليد السموات والأرض ، لأن عثمان رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقاليد السموات والأرض فقال : « مَاسَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ تَفْسِيرُهَا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ » الحديث وفى رواية أخرى «إِنَّهَا سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ » .

وهذه تسمى الباقيات الصالحات أيضاً ، وتسمى كلمة التوحيد ، والقول السديد لأنها تسدّ عن صاحبها أبواب جهنم ، أو أنها قول سديد لا يضره شيء من الشبهات .

وأما الذكر فأقسامه ثلاثة : ذكر باللسان ، وذكر بالجنان ، وذكر بجميع الجوارح .

فالأول يحصل بالألفاظ الدالة على التحميد ، والتمجيد ، والتسبيح ، والتنزيه ، وغير ذلك .

والثانى على ثلاثة أنواع . أحدها : أن يتفكر الإنسان فى دلائل الذات والصفات . ثانيها أن يتفكر فى دلائل التكاليف من الأمر والنهى والوعد والوعيد ، ويجتهد حتى يقف على أسرارها ، فيسهل عليه فعل الطاعات ، وترك المحذورات . ثالثها أن يتفكر فى

أسرار مخلوقات الله تعالى حتى تصير كل ذرة من تلك الذرات كالمرآة ، فإذا نظر العبد بعين عقله إليها علم معنى جلال الربوبية وعظم الصمدانية .

وأما الثالث فهو أن تصير الجوارح مستغرقة فى الطاعات خالية عن المنهيات ، والأفضل ما كان بها جميعاً ، ثم ما كان بالجنان ، ثم ما كان بجميع الجوارح الظاهرة ، ثم ما كان باللسان .

ولا ينبغى أن يترك الذكر باللسان خوفاً من أن يظن به الرياء ، فقد قال الفضيل رضى الله عنه : ترك العمل لأجل الناس رياء .

والآيات الدالة على فضل الذكر كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، واختلف العلماء فى معناها ، فمنهم من عمم فقال : قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي ﴾ يتضمن الأمر بجميع الطاعات ، وقوله تعالى : ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ وقد يتضمن إعطاء جميع الكرامات والخيرات ، فأولها الثواب الذى هو الغاية عند أهل الشريعة ، ثم التعظيم الذى هو الغاية عند أهل الطريقة ، ثم الرضوان الذى هو الغاية عند أهل الحقيقة ، وقوله تعالى : ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ إشارة إلى هذه المراتب ومنهم من خصص ، واختلفوا فيه على أقوال فقيل : أذكرونى بالنعمة أذكركم بالرحمة ، أذكرونى بالدعاء أذكركم بالإجابة ، أذكرونى فى الدنيا أذكركم فى العقبى ، أذكرونى فى الخلوات أذكركم فى التجليات ، أذكرونى فى وقت الخوف اذكركم فى وقت الرجاء ، اذكرونى بطاعتى أذكركم بمعونتى ، أذكرونى بالربوبية أذكركم بالعبودية ، أذكرونى فى الفاتحة أذكركم فى الخاتمة ، أذكرونى بالإخلاص أذكركم بالاختصاص ، وعددوا أحوالاً يذكر العبد بها ربه ، وأحوالاً يذكر الله بها عبده ، ومتى ذكرك ولو مرة واحدة دخلت فى زمرة السعداء .

وقيل فى معنى قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً . وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ المراد منه أن يذكر الله عقب الصلوات ، وغدوًا ، وعشيًا ، وفى المضاجع ، وكلما استيقظ من نومه ، وكلما غدا وراح ، من منزله .

ويعجبنى قول عطاء بن أبى رباح ، وكفى به إماما : من صلى الخمس بحقوقها فهو داخل فى ذلك ، وبالجملة كل من أدى حق الله عليه ، وحق الغير عليه ، وحق نفسه عليه فهو ذاكر لله كثيراً ، وكما يستحب الذكر بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب الجلوس فى حلقته ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا ، قالوا يارسول الله وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ ؟ قال : حِلَقُ الذِّكْرِ » .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على جماعة من أصحابه فقال : « مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ قالوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ تعالى وَنَحْمِدُهُ عَلَى مَاهَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا . قَالَ : آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ ، أَمَا إِنِّى لَا أَسْتَحْلِفُكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ ، وَلَكِنْ أَتَانِى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخْبَرَنِى أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُبَاهِى بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ » .

واعلم أن فضيلة الذكر غير مختصة بالتسبيح والتحميد ونحو ذلك ، بل كل عامل لله بطاعته فهو ذاكر لله تعالى ، فقد ورد فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ أَطَاعَ اللهَ فَقَدْ ذَكَرَهُ وَإِنْ قَلَّتْ صَلَاتُهُ » بأن أدى الفرائض فقط ، وصيامه كذلك ، وتلاوته للقرآن ، ومجالس العلم مجالس ذكر الله كما نقل عن عطاء ابن أبى رباح رضى الله عنه ، والمقصود من الذكر حضور القلب ، فينبغى أن يكون هو مقصود الذاكر فيحرص على تحصيله ، ويتدبر ماذكر ويتعقل معناه ، فالتدبر فى الذكر مطلوب كما هو مطلوب فى القراءة ، ولهذا كان المذهب الصحيح استحباب مدّ الذكر أى لا إله إلا الله لما فيه من التدبر ، وأقوال السلف وأئمة الخلف فى ذلك مشهورة ، وأفضل الذكر لا إله إلا الله للاحاديث الكثيرة فى ذلك ، وفى الحديث الصحيح : « أَفْضَلُ مَاقُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِى : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » . وكثرة الأحاديث فى ذلك جعلت المعنى متواتراً ، وإن كان اللفظ آحاداً .

ومما نقل فى الرجوع إلى الله بهذه الكلمة الشريفة أن ملكا كان يعبد صنما ،

وكان يضعه على قربوس فرسه إذا سافر وكان له وزير مسلم ، وكان يكره من الملك هذا الصنع الشنيع، فاتفق أن الملك خرج لقتال عدوه فخرج معه صنمه ووزيره ، فوقع القتال بينه وبين عدوه ، فقتل من جيش ذلك الملك عدد كثير حتى ضاق ذرعا ، فقال لوزيره : دبّر لنا شيئاً عسى أن يكون لنا فيه الفرج ، ففرح الوزير بذلك ، وقال يامولاى الرأى عندى أن تكسر هذا الصنم ، وتسلم لرب السماء ، وتسأله النصر على عدوك ، قال : أو يفعل ؟ قال : نعم هو أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، فرمى الملك ذلك الصنم فكسره وأسلم لرب العالمين ، ورفع رأسه إلى السماء لأنها قبلة الدعاء ، وسأله عز وجل أن ينصره على عدوه فانتصر على عدوه لساعته .

وانظر إلى سحرة فرعون ، وكانوا ثلاثين ألفاً على المشهور من الروايات ، كانوا أول أول النهار كفرة يحلفون بعزة فرعون ﴿ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، ثم بعد ساعة صاروا برره يحلفون ، ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إلى آخر الآية ﴾ ، وهذا سرّه الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى بهذه الكلمة الشريفة (لا إله إلا الله) .

ومما ينسب لبعضهم وقت احتضاره قوله :

يارب إنى لم أزل فى مثل حال السحره
حين استلاذوا بعرا الدين وكانوا كفره
فآمنوا يوما ففازوا بثواب البرره
ولم أزل مستشعر الإيمان ياذا المقدره
فاغفر فإنى منك أو لى منهم بالمغفره

وأنا أقول كما قال ، وأسأله من فضله متوسلا بجنابه المتعال ، أن يرزقنا وأحبابنا حسن الختام ، وأن يجعلنا ممن فاز منه بالرضا واللطف فى القضا على الدوام ، وأن ينعم علينا بدار السعادة والسلام ، والحمد لله تعالى أولا وآخراً ، ظاهراً وباطناً ، على مرّ الليالى والأيام ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وحبيبه أفضل مبعوث إلى الأنام ، وعلى آله وصحبه وجميع الأنبياء والمرسلين أتم السلام ، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة فى الدعاء

اعلم أن الدعاء سبب من الأسباب العادية فى الوصول إلى المقصد ، والله تعالى ضمن الإجابة بقوله : ﴿ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ وقال : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ ، ولكن الإجابة فى الوقت الذى يريد ، وبالشىء الذى يريد ، لابما تريد ، ولا فى الوقت الذى تريد ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ مَاتَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ ، وقد تتأخر الإجابة أعواماً كثيرة لما يعلمه سبحانه وتعالى من الحكم والمصالح ، وقد قالوا إن الله قال لموسى وهارون : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ ، وكان ذلك بعد أربعين عاماً ، وقد لايجيبه إلا بنقيض مطلوبه ، وقد يؤخره إلى يوم القيامة لما يعلمه سبحانه وتعالى ، ويكون الدعاء خضوعا لله ، وفزعا إليه سبحانه وتعالى ، ونحن نضرع إليه فى قبولنا ، ونسأله حسن الختام .

فائدة

اعلم أنه ورد فى فضل الدعاء آيات وأخبار وآثار كثيرة ، وأن له آدابا ينبغى الداعى أن يحضرها وقت دعائه ، ويتأدب بها فى مناجاته ، رجاء القبول من الملك الوهاب سبحانه وتعالى ، وجملتها كما قال العارف بالله الغزالى رضى الله تعالى عنه أربعة عشر :

الأول : أن يكون على وضوء إن قدر فى كل دعواته أو معظمها ، فإن ذلك أنور للقلب وأرضى للرب ، وأقرب للإخلاص ، وأسرع للاجابة .

الثانى : أن يكون مستقبل القبلة ، فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أتى عرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس .

الثالث : أن يرفع يديه حتى يرى بياض إبطه ولا يشير بأصبعه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « إن ربكم كريم يستحى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرا ، وكان هو صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك » .

الرابع : أن يترصد الأوقات الشريفة لرفعتها وجلالتها : كيوم عرفة ، وعاشوراء ، وشهر رمضان ، وليلة الجمعة ويومها ، لاسيما آخرساعة منه ، ووقت السحر ، و بعد الصبح وما بين الأذان والإقامة ، وتكبيرة الإحرام ، وفى السجود وما أشبه ذلك .

الخامس : خفض الصوت بين المخافتة والجهر ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَيُّها النَّاسُ إِنَّ الذِى تَدْعُونَ لَيْسَ بِأَصَمَّ » .

السادس : أن لايتكلف السجع ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إِيَّاكُمْ والسَّجعَ فى الدعاء» أى لأنهُ يُذهبَ الخشوعَ أو كمالَ الخُشوعِ فإن أتاهُ من غيرِ تكلُّفٍ أوحَفِظَهُ من دعاءِ غيرِه فلا بأسَ بذلك إذا خَلَصَت النيةُ .

السابع : التضرع والخشوع والرهبة، قال تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ . الآية

الثامن : أن يقدم على دعائه ذكر الله تعالى ، والصلاة والسلام على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، قال أبو سليمان الدارانى : من أراد أن يسألَ الله تعالى حاجةً من حوائج الدنيا والآخرة ، فليبدأ بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم يسأل الله حاجته ، ويختم بالصلاة على النبى صلى الله عليه ، فإن الله تعالى يقبل الصلاتين ولابد ، وهو أكرم من أن يدع مابينهما .

التاسع : أن يشرك أبويه وسائرالمسلمين ، فإن الله تعالى أكرم من أن يتكرم الداعى بالدعاء على جميع المسلمين ولا يتكرم هو بالإجابة فيهم وهو تعالى أكرم من أن يجيبه فيهم ولا يجيبه فى نفسه وحاجته ، لأن دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجاب ولابد كما تقدم آنفا .

العاشر : أن يجزم بالدعاء و يصدق رجاؤه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ : أَللَّهمَّ اغْفِرْ لِى إِنْ شِئْتَ بَلْ يَجْزِمُ المَسْئَلَةَ فَإِنَّهُ لاَمُكْرِهَ لَهُ » .

الحادى عشر : أن يلح فى الدعاء وأن يكرّره فإن الله تعالى يحب الملحين فى الدعاء وإن فى الإلحاح إنكسار القلب وخشوعه وتعلقه بذكر الله تعالى .

الثانى عشر : أن لا يستبطئ الإجابة لقوله صلى الله عليه وسلم : « يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَالَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِى » .

الثالث عشر : أن لا يدعو فيما يكرهه الله تعالى ولا فيما يؤدى إلى ذلك ، فإن المقت فى هذا الدعاء أقرب من الإجابة ، فإن أجيب كان استدراجا .

الرابع عشر : وهو الأصل فى قبول الدعاء وسرعة الإجابة التوبة من كل ذنب والإقلاع عن كل معصية والإقبال على الله تعالى بجميع الهمة .

انتهى كلام الإمام الغزالى

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأوّل ما يجنى عليه اجتهاده

وإذا العناية صادفتك عيونها نم فالمخاوف كلهنّ أمان

تركت الناس من بالى فحبـــــل ودادهم بالى
وحبـــــل الله معتمدى به علقت آمـــــالى

تمت هذه الرسالة المباركة بحول الله تعالى وقوته فى غروب يوم الثلاثاء الموافق لستة أيام خلت من شهر جمادى الثانية من سنة ١٣٥٧ سبع وخمسين وثلثمائة بعد الألف ، من هجرة من له العزّ والشرف ؟

بيان الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	١٨	وهذا يتوقف	صار فهمه لهذا يتوقف
٧	١٤	المنقول تواترا	المنقول تواترا أو أحاداً حجة
٨	٧	مفتتحة	مفتتحه
١٤	١٧	عدده	عدّه
١٤	١٨	الآلة	الآلات
١٧	١١	مفرده	لمفرده
١٨	١٣	نحصى	نحصى
٢٥	١٩	استعانة	الاستعانة
٢٩	٢	بنساء عاريات	بنساء أجنبيّات عاريات
٢٩	٦	على ماهى عليه منكرة	على ماعليه الآن منكرة
٣٩	٢٠	غفرله فى الوقت وقيل	قيل الموافقة فى الوقت وقيل فى الإخلاص عن ابن عباس
٤١	٢	تسمى بأشهر كلمة	تسمى غالبا بأشهر كلمة
٥٥	١٢	وإن كانت دلالة	وإن كانت دلالته
٥٦	٧	المشار إليه لقوله	المشار إليه بقوله
٥٧	١٥	واختلفت العلماء	واختلف العلماء
٦٠	٦	أعجبنى الدار	أعجبتنى الدار
٦١	٨	لاثباتها	لا إثباتها

صفحة	سطر	خطـــــأ	صـــــواب
٦٢	٢	وأن واحدة منهما	وأن واحدة منها
٦٣	٨	أو يحذف	أو بحذف
٦٥	٥	تم بعد الاتفاق	ثم الاتفاق
٦٥	٨	فيما يدل	فبما يدل
٦٦	٣	ولا يترتب	ولا تترتب
٧٠	٤	و يميله	و يميلها
٧٠	٨	والصلاة	والصَّلْوُ
٧٠	١٣	الشديد	السديد
٧٢	١٠	بدون الغذاء فالمـأ كول	بدون الغذاء المـأ كول
٧٢	٢١	فيصير كل واحد	يصير كل واحد
٧٣	٦	وعند إرادة التعميم فإدخال	وعند إرادة التعميم يكون إدخال
٧٤	٨	بالعهد	للعهد
٧٨	٣	محل رفع	فى محل رفع
٩٠	٧	بالتقليد	فى التقليد

فهرست

صفحة

٤ فهم القرآن فرض عين أو فرض كفاية

٤ بيان مايتوقف عليه فهم القرآن الذى هو فرض كفاية

٥ بيان أن علم التفسير رئيس للعلوم الدينية وما يتبع ذلك

٥و٦ معنى التفسير والفرق بينه و بين التأويل وما يتبع ذلك من تفسير قوله تعالى هوالذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب إلى قوله والراسخون فى العلم وفيه بيان معنى المتشابه

٧ تفسير سورة الفاتحة ، وفيه بيان معنى القرآن ، وبيان تسميتها بأم القرآن

١٠ بيان معنى المكى والمدنى

١٠ بيان أن بسم الله الرحمن الرحيم آية من كل سورة ، و بيان المذاهب فى ذلك بالأدلة

١٢ بيان معنى بسم الله الرحمن الرحيم إجمالا

١٣ بيان معنى الرحمن الرحيم

١٤ الكلام على الحمد لله رب العالمين وهو مبحث نفيس

١٨ الكلام على تكرير الرحمن الرحيم

١٩ الكلام على مالك يوم الدين

٢١ الكلام على إياك نعبد و إياك نستعين ، وهذا المبحث من أهم مباحث هذا الكتاب وفيه بيان الاستعانة بالأولياء وزيارة قبورهم والكلام على الموالد والسعى إلى الصلاة فى مساجدهم

٢٩ الكلام على إهدنا الصراط المستقيم وفيه بيان أنواع الهداية

٣١ الكلام على صراط الذين أنعمت عليهم الخ السورة وهو مبحث نفيس بُيِّن فى أوله الذين أنعم الله عليهم وفى آخره المغضوب عليهم والضالون وفِرَقُ الضلال والناجون

صفحة

وغير الناجين، و بيان شيء من الضلال، وفيه تحقيق نفيس للاسم الموصول والكلام على آمين
٤١ سورة البقرة والكلام على الم وفواتح السور مستوفى بالأدلة ، و بيان المختار فيها وهو تحقيق تام فيها ، وفيه بيان إعرابها .
٤٩ الكلام على قوله تعالى ذلك الكتاب ، وفيه تحقيق نفيس فى وصف اسم الإشارة بالمحلى باللام ، و بيان السر فيه
٥٢ الكلام على قوله تعالى لا ريب فيه
٥٤ الكلام على قوله تعالى هدى للمتقين ، وفيه بيان معنى الهداية ، و بيان هداية القرآن، و بيان معنى التقوى ومراتبها بتحقيق نفيس واضح
٥٩ بيان مواقع الجمل بعضها من بعض بياناً دقيقاً
٦٠ الكلام على قوله الذين يؤمنون بالغيب، وفيه تحقيق معنى الإيمان ، ومعنى الغيب بوجه سهل دقيق ، وبيان المذاهب فى الإيمان
٦٨ الكلام على قوله تعالى و يقيمون الصلاة ، وفيه بيان معنى يقيمون بياناً تحقيقيا
٧٠ الكلام على قوله ومما رزقناهم ينفقون ، وفيه تحقيق معنى الانفاق ، ومعنى الرزق
٧٣ الكلام على قوله والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وفيه تحقيق الموصول فى هذه الآية على وجه تام
٧٧ الكلام على قوله تعالى و بالآخرة هم يوقنون ، وفى تفسير هذه الجملة تحقيق القصر وتحقيق معنى الايقان
٧٧ الكلام على قوله أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون، وهو من ٧٧ إلى ٨٢، وفيه تحقيق نفيس لتكرار اسم الإشارة ، وتحقيق موقع الثانية من الأولى وسر العطف
٨٢ الكلام على قوله تعالى إن الذين كفروا إلى قوله لا يؤمنون ، وفيه تحقيق لمعنى إنّ و بيان عملها ، وتحقيق معنى التأكيد ، و بيان الداعى إليه ، والمراد بالموصول وسبب النزول ، و بيان رأى المعتزلة فى حدوث القرآن ، والكلام معهم فى ذلك ، وفيه بيان

صفحة

التكليف المحال بوضوح تام ، وهو من نفائس هذا الكتاب
٨٩ الكلام على قوله تعالى ختم الله على قلوبهم إلى قوله عظيم ، وهذا المبحث بحمد الله لم يوضح فى تفسير مّا بمثل توضيحه هنا ، فقد اشتمل على تحقيق الكلام فى خلق الأفعال ، و بيان المذاهب بأدلتها ، ورد المردود منها ، و بيان وجه الرد وتطبيق الآية على المذاهب ، وكذا تطبيق غيرها أيضاً ، وهذا التحقيق نفيس للغاية و إن لم يكن إلا هو فى هذا الكتاب لكفى
١١٠ تفسير آية الكرسى الخ ، وهو تفسير دقيق مع تمام الوضوح ، وقد اشتمل تفسيرها على نفائس جمّة قلّ أن توجد فى غير هذا الكتاب
١٣٦ خاتمة فى الدعاء

بحمد الله تعالى تم طبع كتاب: «التحقيقات الواضحة» لصاحب الفضيلة «الشيخ محمد الحسيني الظواهري» مصححاً بمعرفتي مع مراجعة المؤلف ؟

أحمد سعد علي

من علماء الأزهر الشريف ورئيس التصحيح

[القاهرة في يوم الخميس ٤ رمضان سنة ١٣٥٧ هـ / ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٣٨ م]

ملاحظ المطبعة

محمد أمين عمران

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبي